المحاضرة السادسة

موضوع المحاضرة : العصر الحجري القديم الأعلى (الحضارة القفصية)

الباليوليتي الأعلى (35.000 سنة ق.م 10.000 سنة ق.م)

شهد العصر الحجري القديم الأعلى اختفاء إنسان نياندرتال وحلول الإنسان العاقل محله، وهذا الإنسان ورث حضارة سلفه وأضاف اليها وارتقى بها إلى المرحلة المعقدة التي هي فيها اليوم .واستمرت في هذا العصر صناعة الأدوات الحجرية ولكن بأشكال جديدة تُعرف في أوساط علماء الآثار بالنصال التي تصنع من شظايا طويلة رفيعة.

بالنسبة للتقدم التقني للأدوات، نلاحظ في كل مكان تقريبا أدوات أصبحت أكثر خفة. ولكن بقيت تلك الأدوات في بعض المناطق تصنع على الشظايا، ولكن في مناطق كثيرة أخرى ظهر نمط جديد في تصنيع الحجر يمكّن من الحصول على قطع طويلة رقيقة لها سطح ضيق تسمى النصال . (Lames) هذه النصال دعمت الأدوات مع أنها معروفة بالتأكيد قبل ذلك بوقت طويل، إلا أنها في هذا العصر قد ت ا زيدت .وقد أصبحت المكاشط لها جبهة دائرية مصنّعة من خلال تشذيب متوازي بدرجة أو بأخرى، ولابد أنها اُستخدمت في العمل بالخشب والعظم والجلد .كما أن الأزاميل في هذا العصر لها رأس ضيق بشكل عام على جسمها وخُصصت لإحداث الحزوز الضيقة والعميقة في المواد الصلبة وبخاصة العظم وربما الخشب .إلى ذلك تُضاف المخارز وأنواع مختلفة من الحراب، وقد تطور العمل على العظم وفي قرون الأيل والعاج .صنعت من هذه المواد أشياء بسيطة مثل المخارز والرماح وأخرى أكثر تعقيدا مثل الحربون (Harpon)والعصي المثقوبة، حيث اُعتبرت هذه العصي سابقا إشارة القيادة ولكنها الآن تُفسر كأدوات مخصصة من أجل تقويم الأدوات العظمية والخشبية.

كما قد شهد العصر الحجري المتأخر(الأعلى)، وهو مرحلة الإنسان العاقل، ازدهار حضارات اشتهرت فيها صناعات حجرية دقيقة تمتاز بالتخلي عن التقنية الليفالوازية في إعداد النواة وبالدور الهام الذي لعبته الشفرات و النصال (Lames)العادية والدقيقة ضمن الأدوات.

كما أبرزت هذه الأدوات الخفيفة تنوعا كبي ا ر بالمقارنة مع ما عُرف عن أدوات العصر الحجري الأوسط ،وظهرت خلال هذه المرحلة خصوصا أدوات جديدة مخصصة للطحن، وأخرى من العظم المصقول، كما ظهر استعمال بيض النعام كأوعية، بل اُستعمل كمادة خام حقيقية في صناعة قطع الحلي .وأخي ا ر فإن مرحلة العصر الحجري المتأخر هي التي شهدت بوضوح كبير ظهور الطقوس الجنائزية وممارسة السحر وبداية الفن الذي سيعرف انطلاقة كبيرة خلال مرحلة العصر الحجري الحديث.

وتجدر الإشارة إلى أن المتخصصون قد قسموا العصر الحجري القديم الأعلى عموما إلى ثلاثة عصور ثانوية هي:

العصر الأورغناسي :نسبة إلى موقع أورينياك في حوض الكارون العلوي بجنوب فرنسا .و أدوات هذا العصر أغلبها من حجر الصوان، وهي دقيقة الحجم والصناعة، وجدت مع الأدوات الحجرية أدوات مصنوعة من العظام بعضها ذات أخاديد وبعضها سائبة النهايتين وطويلة، وبعضها على شكل عصا مثقوبة، ربما تكون نوعا من الآلات الموسيقية، بدأ هذا العصر في 25.000 سنة قبل الميلاد.

العصر السوليتيري :سُمي نسبة إلى منطقة سلوترة بمقاطعة السارون، حيث وجدت آلاته في أحد الكهوف، وتتميز بدقة الصنع وبشكلها الذي يشبه ورقة شجرة الغار، ومن أهم أنواعها السكاكين(النصال)التي بلغ طولها ما بين 15 و 35سم، وعرضها 8 سم، وسمكها 9- 6 ملم .زمن هذه الصناعة يتراوح ما بين 20.000 و17.000 سنة ق.م حسب اختبار الكربون المشع 14 C

العصر المجدالي(المكدليني :)نسبة إلى موقع ماكدلين في منطقة الدوردون بجنوب فرنسا .ويتميز هذا العصر الذي امتد ما بين 17.000 و 12.000 سنة ق.م بكثرة تصنيع العظام والعاج وقرون الحيوانات، وتصنيع حجر الصوان بشكل خاص لعمل المكاشط بأنواع عديدة، وعمل السكاكين والمشاعل الحجرية المقعرة .وفي هذا العصر ظهرت أولى بوادر الفن التعبيري متمثلة برسوم الكهوف في غرب أوربا وبظهور تماثيل الحيوانات الطينية ودمى العظم و العاج، الحجر الأنثوية التي سميت تماثيل فينوس . (Venus) وقد مارس الفنانون في هذا العصر الرسم والحفر والنحت لأغ ا رض سحرية أو إرضاءً لميولهم في أوقات فراغهم.

أما في الشمال الإفريقي، فإننا نجد حضارتين مثلتا هذا العصر، إحداهما ساحلية، وهي الابيرومغربية، والثانية داخلية وتمثلها الحضارة القفصية.

أ تعريفها :ظهرت هذه الحضارة بعد الابيرومغربية، ومجال انتشارها الجغرافي مختلف عنها .فقد عُرفت في بداية الأمر بإقليم قفصة، ومن هنا سُميت بالقفصية، وسمح تطور الأبحاث الأثرية فيما بعد بتحديد أماكن قفصية خارج خليتها الأولى، وذلك في جهات سطيف وقسنطينة، وكذلك بعيدا في اتجاه الغرب حتى إقليم تيارت، أما في المغرب الأقصى، فلم يُعرف أي أثر للحضارة القفصية هناك حتى الآن، وزيادة على ذلك، فحيثما وُجدت القفصية فهي لا تصل للسواحل أبدا .وقد حُدد أبعد تاريخ للحضارة القفصية في موقع عين ناقة(مسعد بالجلفة) ب 7351 سنة ق.م، بينما يدور آخر تواريخ القفصية أواخر الألف الخامسة قبل الميلاد(حوالي 4391 سنة ق.م)بموقع كلومناطة القفصي.

ب أدوات الحضارة القفصية :تتشكل الصناعة القفصية من مجموعة كبيرة وواسعة من الأدوات والأسلحة المصنوعة من الشظايا الصوانية، لاسيما الشفرات التي وزعها الإنسان العاقل (Homo Sapiens) في جزء كبير من القارة الإفريقي حيث تشمل محتوياتها أدوات حجرية و ميكروليتات مثل شفرات كليلة الظهر وحراب، مكاشط، أزاميل وبعض الأدوات البسيطة من العظم وحيث أن ما يثير الاهتمام في أدواتها الحجرية كونها ذات أشكال هندسية دقيقة مثل أشباه المنحرف، وذات الحواف المجوفة نوعا ما، والتي تعطي مثلثات دقيقة و هلاليات صغيرة، وقد تركت التقنية التي تسهل عملية الحصول على هذا الصوان الصغيرة بقايا ذات أحجام دقيقة مزودة بحزوز وسن حادة وانكسار مائل، فقد أُطلق عليها خطأ اسم المناقش الدقيقة،وعلى العموم نذكر من مجموعة الأدوات القفصية المختلفة:

المحكات المخارز المصنوعة من شظية أو شفرة أو نصلة، وهي تنتهي بتحزيزتين عميقتين تكونان رأسا حادا أحيانا.

الأزاميل المصنوعة عموما من الشفرات، وقد تعرضت الشف ا رت الكبرى أحيانا للمسات مثل النصال الإبيري مغربية ولنحت إضافي استهدف إزالة إحدى حوافها، فأصبحت بعد ذلك في شكل سكاكين حقيقية .كما أن بعض الشفرات و النصال حُززت أو سُننت وكذلك بعض الشظايا، فأعطاها انتظام تسننها احيانا هيئة مناشير حقيقية صغيرة.

و أخيرا استخدم الصنّاع القفصيون تقنية الأزاميل الدقيقة في كسر النصال من أجل صناعة الأدوات الحجرية الدقيقة، وهي قطع صغيرة منحوتة ذات أشكال هندسية، يليه نحت ثانوي يتناول خط الكسر فينتج عنه ما يلي :

أدوات من العظم المصقول :التي تعتبر أكثر عددا وتنوعا من مثيلاتها في الحضارة الابيرومغربية، إذ توجد من بينها المخارز والقطاعات، وكذلك أدوات ذات نهاية دائرية، وابر دقيقة وسكاكين حقيقية وخناجر، غير أنها نادرة.

ج مراحل الحضارة القفصية- :

سادت لمدة طويلة فرضية تقول بأن تطور الحضارة القفصية مر بمرحلتين، مرحلة قديمة كانت القفصية فيها محدودة في إقليم قفصة و تبسة، وكانت أدواتها خشنة، فسُميت لهذا السبب بالحضارة القفصية النموذجية، ثم عرفت توسعا حقيقيا على يد رجال انطلقوا من الموطن الأول وصنعوا أدوات صغيرة أكثر دقة وخفة، وهذه المرحلة الثانية هي التي سميت بالقفصي الأعلى .ولتمتين هذه الف رضية كان يجب أن يكون القفصي النموذجي أقدم بطبيعة الحال من القفصي الأعلى .ولكن هناك أعمالا أثرية حديثة بينت معاصرة الثاني للأول أو تأخره عنه أحيانا، ومن ثم فإنه إذا حافظنا على هذا التمييز بين القفصيتين، فلم يبق لهما نفس المدلول.

القفصية النموذجية :وُجدت بقاياها في الجنوب القسنطيني و الصحراء التي استمر استعمالها فيها لمدة أطول، ولم تتطور كثي ا ر إلا في تونس .والقاسم المشترك بين الحضارة الأورغناسية و القفصية النموذجية يتمثل في الأ ا زميل الحادة والشف ا رت المهذبة الحافة، والمكاشط ذات الأطراف البارزة في غالبيتها .غير أن ذلك لا يجعلنا نهمل وجود الأدوات الحجرية الدقيقة مثل الشفرات الصغيرة ذات الحواف المهذبة التي يحاكي بعضها الأشكال الهندسية لشبه المنحرف، وهي تمثل تطو ا ر كبي ا ر .و إذا سلمنا بنتائج الكربون المشع، فإنه يؤرخ للطبقة القفصية النموذجية بالألف السابعة قبل الميلاد، وربما قبلها بقليل.

القفصية العليا :يعود تصغير الأداة الحجرية الكبيرة وصناعة الأشكال الأخرى سواء الهندسية منها أو غير الهندسية إلى مرحلة تطورت فيها الحضارة القفصية النموذجية، ولذلك أُطلق على هذه المرحلة" القفصية العليا ."وقد كان انتشارها أوسع من الأولى، لذلك وجدت بقاياها منتشرة عبر الصحراء حتى وادي سوف، ويبدو أن تأثيرها وصل إلى توات(رقان) أما في الشمال الغربي فقد وصل تأثير الحضارة القفصية العليا إلى منطقة القبائل، ولم يتم الانتشار المشار إليه دون أن يتبعه تنوع الأدوات، وفي هذه المرحلة ظهرت سمات بارزة لحياة الإنسان تتمثل في احتمال بداية جمع الثمار البرية التي تُعتبر مقدمة للزراعة في شمال إفريقيا.

مواقع الحضارة القفصية- :

تم تعريف هذه الحضارة في موقع المقطع قرب قفصة، ومن العدد الكبير لمواقعها الهامة في الجزائر نجد في اقليم تبسة :موقع أرفانة، قلعة المحاد وعين الذكارة .ثم موقعي المجز و عين بوشريط في إقليم سطيف، وموقع كلومناطة و عين كيدا قرب تيارت .

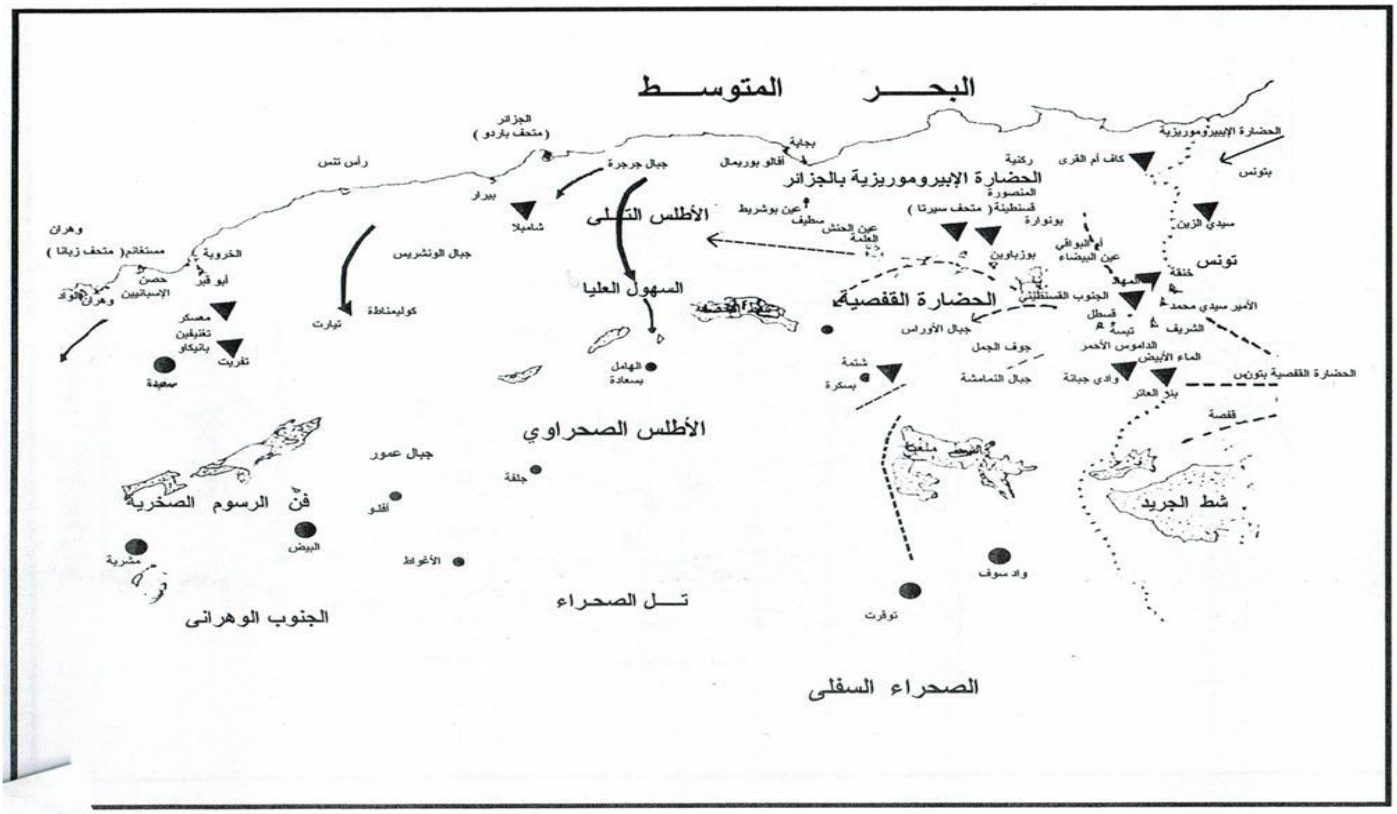

انتشار الحضارتين الابيرومغربية و القفصية في شمال إفريقيا
عن :ليونال، بالو، الجزائر في ما قبل التاريخ، ص 181